تهويمة صوفية

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

الى الصوت الحنون المتواجد الذى ينبعث مع كل فجر هاتفاً : (سبحان ذاك الأصباح !) فيهز أعماق ويخرق روحى فى نشوة سماوية »

أى لحن مسلسل رقراق راح ينساب فى مدى الآفاق
أيقظ الكون حين منبثق الفجر على غمرة من الأشواق
وإذا الحب ملء هذا الوجود الرحب يسرى فى روعة وانطلاق
وإذا الكائنات يغرقها الوجد الإلهى فى سنى الإشراق !.
السموات من حنين ووجد مخبآت خلف الغيوم الرقاق
والجبال الشماء تشخص نحو الله سكرى ، فى لهفة المشتاق
وندى الفجر فى الرياض الحوالى أدمع الشوق رقرقت فى المآقى
كل ما فى الوجود من روعة اسم الله فى نشوة وفى استغراق !

* * *

أى لحن مخلد سرمدى من لحون الآزال والآباد !.
أى لحن قد صير الكون أغرودة حب رخيمة الإنشاد
يا لهذا النشيد تنطلق الأرواح فيه من ربقة الأجساد
يا لهذا النشيد أوغل فى أعماق ذاتى محطما أصفادى
يا لقيدى الأرضى يسحقه اللحن ويذروه حفنة من رماد
وإذا الروح فى تجرده يسمو مشعاً كالكوكب الوقاد
عانق اللحن مصعداً وتوارى يتخطى شواسع الأبعاد
غارقاً فى صفائه ، قد تغشته غواشى غيبوبة وامتداد !

* * *

كلما رن فى السكون صدى تسبيحة الله رائع الترديد
وسرت فى الأثير أنغامها الطهر وأوغلن فى الفضاء البعيد

شواظاً من نار فيه المهانة والاحتقار وفيه الرزء والبلاء ، لأن رجلا طوعت له نفسه أن يغمز إيمان كعب بن مالك وأن يعبث بعقيدته. وأحس كعب فى كلمات الملك الغساني معانى السخرية الجامحة والامتهان المرير فنشر الكتاب أمامه — مرة أخرى — فبدت له كلماته تتلوى كأنها حيات توشك أن تنفث فيه سمومها فتصعف به فأصابه الذعر والفزع، فانطلق إلى التنور يسجره بالصحيفة خشية أن يصيبه الأذى، ثم هام على وجهه أياماً يرسل الدمع فى حسرة ولوعة لا ترقأ عبرته ولا تجف

ومضى أربعون يوماً منذ أن جلس كعب أمام النبى (ص) يحدثه حديث الصدق والإخلاص والصراحة ، ثم أرسل النبى (ص) رسوله خزيمة ابن ثابت إلى الرجل يأمره بأن يعتزل امرأته فلا تلبث ولا تسوق ولا تجادل. ولكنه أحس المنة والبلاء ، هذه — ولا ريب — قاصمة الظهر ، إن الرسول (ص) لا يأمر الرجل بأن يعتزل زوجته إلا أن يكون كافراً وهى مسلمة ، وشمل الرجل حزن عميق حين رأى النبى (ص) يوشك أن ينزع عنه حلة الإيمان ليجلله العار والضعة ، فاستسلم إلى البكاء عسى أن يكفر عن ذنبه أو ينفس عن أشجانه

وقسا الرجل على نفسه — مرة أخرى — فابتنى خيمة على ظهر جبل سلع يخلو فيها إلى نفسه وإلى همومه ، ويقضى هناك عمره يبتغى التوبة مما فرط منه ، وقد ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه

وصلى كعب صلاة الفجر صباح خمسين ليلة فى خيمته التى ابتنى فافرغ من الصلاة حتى سمع صوت صارخ أوفى على سلع ينادى بأعلى صوته يا كعب بن مالك : بشر » فخر الرجل ساجداً حين تبين له أن قد جاء فرج من الله ... خر ساجداً والعبرات تتزاحم فى محجريه فرحاً وسروراً

وجاء البشير فكساه كعب ثوبيه ببشارته ، وهو — إذ ذاك — لا يملك غيرهما ، ثم استعار ثوبين فلبسهما ، وانطلق يتأم رسول الله (ص) ، فتلقاه الناس فوجاً بعد فوج يهنئونه بالتوبة حتى دخل المسجد فسلم على رسول الله (ص) فرد عليه السلام وهو يبرق وجهه من السرور ويقول « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » فخر الرجل ساجداً شكراً لله ، والعبرات تتزاحم فى محجريه فرحاً وسروراً

فاضل محمود حبيب